غارودي والإسلام*

(روجيه غارودي)

قراءة رضوان زيادة

يفتتح غارودي مشروعه في نقد الأصوليات المعاصرة(**) بهذا الكتاب الذي يخصصه للحديث عن الإسلام، أو لنقل بصيغة أدق للتبشير بالإسلام كما يفهمه ويراه.

ينطلق غارودي مهجوساً بسؤالٍ يطرحه الواقع عليه، يتجلّى في البحث للإسلام عن دور في العالم المعاصر بعد أن فقد حضارته، إذ كيف يمكنه أن يعود فيجد له مكاناً في عالم صار فوضى وهيمنة لإمبراطورية واحدة، إمبراطورية الولايات المتحدة، ناشرة النظرية الليبرالية الأكثر تدميراً للعالم؟

وهكذا فإن سؤالاً بهذا الحجم لا يدفع غارودي للتفكير للحظاتٍ في مساءلة نفسه عن مشروعية السؤال ـ إذ نتفق معه على ذلك ـ وإنما عن إمكانية السؤال. إنه يفاجئنا بإجابته الفورية التي تتمحور في ضرورة «ألا يقرأ القرآن الكريم بعيون موتى، ولكن بفكر نقدي وتاريخي، تستخلص منه المبادئ

(*) الإسلام: روجيه غارودي، ترجمة وجيه أسعد، (بيروت: دار عطية، ط 1، 1996).
روجيه غارودي، مفكر فرنسي، تنقّل بين الماركسية والكاثوليكية واللاأدرية، إلى أن اعتنق الإسلام فيما بعد. له العديد من المؤلفات في الماركسية أهمها: «ماركسية القرن العشرين»، وفي الأدب «واقعية بلا ضفاف»، وفي مجال حوار الحضارات والإسلاميات «من أجل حوارٍ بين الحضارات» و«وعود الإسلام» و«الإسلام الحي» وغيرها مما يزيد عن المائة مؤلف.

(**) مشروع غارودي في نقد الأصوليات المعاصرة يتجلّى في ثلاثة كتب مخصصة للأديان السماوية الثلاثة: «الإسلام»، «نحو حرب دينية، جدل العصر»، «الأساطير المؤسسة للسياسات الإسرائيلية». وجميعها صدرت عن دار عطية للنشر، بيروت، 1996.

الأبدية التي تكون القواعد الأساسية لكل مجتمع إنساني» (ص 11).

ولكن كيف تتم قراءة القرآن قراءة نقدية وتاريخية، يجيبنا عن ذلك بالبحث عن التصور القرآني، وهو التصور الناجم عن الفكرة الرئيسية للرؤية الإسلامية وهي التوحيد. وهذا التوحيد بدوره هو تصور عن الحب الذي هو تجرد من الأنا الصغيرة، ليتاح المكان كله فينا لله، للواحد، للكل. هذا الحب هو «أساس الوحدة العميقة بين الصوفية المسيحية والصوفية الإسلامية والتي ستبلغ أوجها في الأخوة الروحية بين ابن عربي والقديس جان دولاكروا مع الفرق بينهما والذي يتعدى ثلاثة قرون» (ص 20).

وهكذا يبدو الإسلام كما يكشف عن ذلك القرآن، «غير مرتبط بالتقاليد النوعية لشعبٍ من الشعوب فكل فرد يتعرف فيه على الرسالة التي كان قد تلقاها من أنبيائه في صورتها الأبسط والأكثر شعبية. ففي فارس من الفردوسي إلى الشيرازي اندمجت في الإسلام روحانية تعود إلى الماضي، وفي إسبانية مع ابن مسرة، اندمجت في الإسلام فكرة اليونانيين بعد السقراطيين «أمبيدوكل» ويونانيين إسكندريين وأفلوطين، وأوضح ابن عربي، في ضوء الإسلام أيضاً، أبعاد الحب وأسبقية المسيحية» (ص 25).

وخلاصة القول، ـ والكلام لغارودي ـ أن الإسلام من الناحية الروحية، الذي يواجه إمبراطوريتين في غمرة انحطاطهما الاجتماعي والروحي، لا يبدو بمثابة دين جديد، بل «إن الشعوب التي كان الإيمان القديم قد كفَّ عن أن يمنح حياتها ومؤسساتها روحاً كالمسيحية والمزدكية هي التي استقبلته استقبالاً حماسياً فالإسلام يكون يقظة دينية تمنح روحانية هذه الشعوب حياة جديدة» (ص 27). إلا أنه يستدرك ـ إذ إن الإسلام ليس فقط ناقل ثقافات سابقة، بل هو «مبدع ثقافةٍ جديدة فتصوره للتوحيد لا كوحدةٍ للوجود بل كعمل توحيدٍ في كل مجالات الخلق أتاح له أن يجدد الثقافة السابقة تجديداً عميقاً» (ص 46). وهكذا (يتطابق) إلى حدٍ ما مع ما اختاره عنواناً لفصل كتابه الأول (الإسلام ليس ديناً جديداً ولد مع نبوة محمد).

لقد قصدت من اختياري للفظة المطابقة أن أثير سؤالاً يفرض نفسه وهو

مدى المطابقة ـ لنقل على الأقل المقاربة ـ بين ما طرحه وبين ما اختاره عنواناً لكتابه «الإسلام».

لقد انتهى غارودي إلى فهم روحاني، وصوفي، للإسلام، بل تتحول الروحية إلى جوهر الرسالات وإلى الصورة الوحيدة التي يجب البحث عنها خلال المسار التاريخي بأكمله بدءًا من اليهودية ومروراً بالمسيحية والمزدكية وانتهاءً بالإسلام. وإنما أتى الإسلام ليؤكد هذه الصورة، إننا نستطيع أن نختزل صورة غارودي عن الإسلام، بأنه يجب علينا أن نستوعب الإسلام من خلال الروحية التي تمثلت في صيغة اندماج روحانية اليونانيين والإسكندريين والديانات اليهودية والمسيحية والهندوكية.

وفي النهاية هل نحن أمام طرح عصري للإسلام كما أراد هو نفسه أن يبدأ بذلك عند طرحه ذلك السؤال، أم نحن أمام تهويمات روحانية كما وصفها علي حرب، وإسقاطات إرادوية قسرية تخفي وراءها نزعة استشراقية مضت أيامها وانتهت؟!

إنه في الفصل الثاني من الكتاب يدرس انحسار الإسلام متجسداً في تجربة الأندلس والهند وليكتشف من خلالهما الأسباب الرئيسة لهذا الانحسار، التي هي برأيه أسباب داخلية تتجلّى في الحذر اللاهوتي من التجديد والاجتهاد لمصلحة التقليد والانطواء على الذات والعزلة والادعاء. إذ بدأ الانحسار عندما باشر الفقهاء ورجال الدين، المشغولون في مرحلة الأزمة بالاضطراب السياسي، بالظنِّ بكل تجديدٍ في أي مجال بحجة الاستقامة الدينية.

غير أن الانحسار الأول للإسلام بدأ مع الأمويين الذين قلّدوا استبداد الإمبراطورية البيزنطية وغِناها مع كل ما رافق ذلك من ألوان الفساد الناجمة عن السلطة المطلقة والثروة، مما أفسد الروح الداخلية وأدى إلى انحطاط ترافق مع انحرافات مذهبية ساعدت على انتشار ما أسماه «بلاهوت السيطرة».

هذا اللاهوت الذي أغلق باب الاجتهاد «قمع التفكير فخيّم ليل التقليد وخلق الطاعة العمياء لرأي القدماء».

أما الانحسار الثاني للإسلام فكان مع ظهور بعض الخلفاء العباسيين القليلي الثقة بالقوة والإشعاع الحر للإيمان الإسلامي، مما حوّل الفكر في الإسلام إلى مجرد استذكار للنصوص الفقهية التي أضيفت عليها القداسة، ولحساب ثرثرة لاهوتية دوغمائية، لا لحساب دراسة هذه النصوص، وتجلّى ذلك الجفاف الفقهي مع إدانة ابن تيمية لابن عربي أحد التعبيرات الأكثر سمواً للداخلية الإسلامية وأبعادها في الحب.

أما الانحسار الثالث للإسلام فقد كان مع الإسلاموية، فبعد جهد البناء الجديد للفكر الإسلامي من الأفغاني إلى محمد إقبال نشأت الأصولية التي هي مرض الإسلام كما هي مرض الأديان كلها، فالأصولية هي الادعاء بملكية الحقيقة المطلقة وبالتالي وجوب فرضها على الجميع، لقد تجلّت الأصولية الأولى مع الاستعمار الغربي، لذلك فالإسلاموية ليست سوى واقعة مشؤومة على نسق واحد، ناشئة من إخفاق المشروعات القومية أو الاشتراكية في العالم الإسلامي. إن الإسلاموية يكمن عيبها في عدم تمييزها بين «الشريعة» الدرب الأخلاقي الأبدي والكلي الذي فتحه كل الأنبياء باسم الله ـ و«التشريع» الذي يمكنها أن تلهمه في كل عصر لحل مشكلات هذا العصر.

أما الفصل الثالث (الإسلام الحي) فهو الإسلام الذي يقرأ القرآن قراءة جديدة، قراءة تولي أهمية كبرى للنظر واكتشاف قوانين الطبيعة (التفكير) وللسيادة التقنية على الطبيعة (التسخير) الإسلام الحي الذي ينبغي له أن يغتني لدى كبار رواد الروح الذين اعتبروا بأبعادها الإلهية، من الأوبانيشاد في الهند إلى تاوية تشوانغ ـ تو، ومن كيركيغارد إلى دستويفسكي، ومن تجربة جان دولاكروا، هذا الانفتاح على الحياة الداخلية والحياة الروحية لهذه الإنسانية هو الدرب الأسهل لنهضة العلوم في العالم الإسلامي.

إن قراءة القرآن لا يمكنها أن تكون حرفية، فمنذ أن يتجلى في اللغة النوعية وفي الشروط الخاصة لعصر التنزيل يبدأ العمل، ذلك أنه من الضروري استخلاص المبدأ الحي من الحرف الميت.

فلا القرآن الكريم ولا السنة شرّعا في المطلق، إنما أدليا بإجابة إلهية،

لكنها دائماً تاريخية ومشخصة، عن مشكلات مجتمع أقل تعقيداً من مجتمعنا، إن هذه القراءة تستمد مشروعيتها من كون لغة التنزيل القرآني لغةً ليست تاريخية فحسب بل رمزية.

ولكن (كيف يمكن أن يتوطن إسلام حي في مستقبلنا؟) هذا ما أراد غارودي أن ينهي به كتابه.

إن الإجابة لديه تكمن في فهم القانون الإلهي، الشريعة التي توحد المؤمنين كلهم

إن المعركة التي ندخلها في الواقع المعاصر معركة مصيرية، ولا شيء يوحدنا مثل ما يوحدنا لاهوت التحرير، الذي يجعل إيماننا ضرباً من خميرة التاريخ وليس أفيوناً. وهكذا تنتهي اللوحة التي رسمها ونحت معالمها غارودي ثم أطلق عليها (عنوان الإسلام) واعتبر فهم هذه اللوحة مشروطاً بالصيغة التي فهمها هو. وبغير هذه الصيغة لن يدخل العالم الإسلامي طريق الحداثة والتقدم ولن يستعيد دوره الحضاري الذي فقده.

وإذا أردنا أن نفكك تركيبة هذه اللوحة، أو نحلل الألوان الداخلية التي صاغتها فإننا لن نجد صعوبة أبداً في اكتشاف هذه (الخلطة) التي أطلق عليها اسم الإسلام.

فالماركسية ـ كما يجب عليها أن تكون ـ (وتلك لازمة حاضرةٌ دوماً في خطاب غارودي)، بصيغتها المؤمنة والمتصالحة مع الدين هي الصيغة الحقيقية للماركسية، وماركس نفسه رفض الصيغة العلموية الوضعية للدين، وقال إذا كانت هذه الماركسية فأنا نفسي لست ماركسياً، هذا الوجه للماركسية يشكل الخلفية الرمادية للوحة، وتلعب المسيحية أيضاً بصيغتها التحررية (أي كما ظهرت عند لاهوت التحرير وخاصة عند دوم هلدر كامارا وليوناردو بوف(*))، هذه المسيحية التي قادها نقد ماركس للأيديولوجيات إلى التصدي للمشكلات

(*) روجيه غارودي، نحو حرب دينية؟ جَدَل العصر، مقدمة ليوناردو بوف، ترجمة صياح الجهيم، (بيروت: دار عطية، ط 1، 1996).

العلمية تصدياً محسوساً على نحو أكبر، مما جعل الإنجيل «البشارة» بالإمكانات اللانهائية في الإنسان، ويسوع هو رمز تلك الإنسانية المتحررة والمبدعة، هذا الوجه للمسيحية شكّل أيضاً الخطوط الرئيسية للوحة ولم يبق إلا الخطوط الثانوية التي على الإسلام بصيغته الجديدة أن يملأها أي الإسلام كما تجلى عند السهرودي والحلاج وابن عربي الذي مثّل الحالة الأكثر ألقاً في الإسلام.

هذه الألوان تشكل جميعاً اللوحة التي أطلق عليها غارودي اسم «الإسلام» التي هي مزيج من الماركسية كما يفهمها والمسيحية كما يراها والإسلام كما يتخيله.